الباب الثالث

في سياق حجج من اختار أنها جنة الخلد التي يدخلها الناس يوم القيامة .

قالوا : قولنا هذا هو الذي فطرَ الله عليه الناسَ صغيرهم وكبيرهم ، لم يخطر بقلوبهم سواه ، وأكثرُهم لا يعلم في ذلك نزاعاً .

قالوا : وقد روى مسلم في « صحيحه » من حديث أبي مالك ، عن أبي حازم ، عن أبي هريرة ، وأبي مالك ، عن ربعي ، عن حذيفة قالا : قال رسولُ الله ﷺ : «يجمعُ الله تعالى الناسَ ، فيقومُ المؤمنونَ حتَّى تُزْلَفُ لهم الجنةُ ، فيأتونَ آدمَ [عليه السلام] فيقولون : يا أبانا : استفتحْ لنا الجنَّة : فيقول : وهل أخرجَكُم من الجنَّة إلا خطيئةُ أبيكم ؟ »[1] وذكر الحديث .

قالوا : وهذا يدل على أن الجنّة التي أخرج منها هي بعينها التي يطلب منه أن يستفتحها .

وفي « الصحيحين » حديث احتجاج آدم وموسى ، وقول موسى : أخرجتنا ونفسك من الجنة[2] ، ولو كانت في الأرض ، فهم قد خرجوا من بساتين ، فلم يخرجوا من الجنة . وكذلك قول آدم للمؤمنين يوم القيامة : وهل أخرجكم من الجنة إلا خطيئة أبيكم ؟ وخطيئته لم تخرجهم من جنات الدنيا .

قالوا : وقد قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وقلْنا يا آدمُ اسكنْ أنتَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٥) في الإيمان : باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها . ومعنى تزْلف : أي تُقرَّب .

(٢) أخرجه البخاري (٦٦١٤) في القدر : باب تحاج آدم وموسى عند الله ، ومسلم (٢٦٥٢) في القدر : باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام .

وزوجُك الجنَّةَ وكُلا منها رَغداً حيثُ شِئتُما ولا تَقْرَبا هـذه الشَّجرةَ فتكُـونا مِن الظَّالِمينَ . فأزَلَّهما الشَّيطانُ عنها فأخرجهُما مِمَّا كانا فيه وقلْنـا اهبطُوا بعضُكُمْ لبعض عَدوٌّ ولكمْ في الأرضِ مُستقرٌّ ومَتاعٌ إلى حينٍ ﴾ [البقرة : ٣٥ ـ ٣٦] .

فهـذا يـدل على أن هبـوطهم كـان من الجنـة إلى الأرض من وجهين : أحدهما : من لفـظة : ﴿ اهبطوا ﴾ ، فـإنه نـزول من عُلو إلى سُفل .

والثاني قوله : ﴿ولَكُمْ في الأرضِ مُسْتَقَر﴾ [البقرة: ٣٦]. عقيب قوله: ﴿اهبـطوا﴾. فدلّ على أنهم لم يكـونوا قبـل ذلك في الأرض، ثم أكَّـد هـذا بقوله في سورة الأعراف: ﴿قال فيها تَحيَوْنَ وفيها تموتُونَ، ومنها تُخرَجُـون﴾ [الأعـراف: ٢٥]، ولـو كـانت الجنـة في الأرض لكـانت حيـاتهم فيهـا قبـل الإخراج وبعده.

قالوا : وقد وصف سبحانه جنة آدم بصفات لا تكون إلا في جنـة الخلد فقال : ﴿ إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فِيهَا ولا تَعْـرَى وَأَنَّك لا تَظمأ فيها ولا تضحى ﴾ . [طه : ١١٨ ـ ١١٩] ، وهذا لا يكون في الدنيا أصلاً، فإن الرجل ولو كان في أطيب منازلها فلا بد أن يعرض له شيء من ذلك ، وقابل سبحانه بين الـجـوع والعري، والـظمأ والضحى ، وذلك أحسن من المقـابلة بين الجوع والعـطش ، والعري والضحى . فإن الجوع ذلّ الباطن ، والعري ذلُّ الظاهـر ، والظمـأُ حرُّ الباطن ، والضحى حرُّ الظاهر . فنفى عن سـاكنها ذلَّ الـظاهر والبـاطن ، وحرَّ الظاهر والباطن ، وهذا شأن ساكن جنة الخلد .

قالوا : وأيضاً ، فلو كانت تلك الجنة في الدنيا لعلم آدم كذب إبليس في قوله : ﴿ هلْ أدُلُّـك على شجرةِ الخُلدِ ومُـلكٍ لا يَبْلى ﴾ [طه : ١٢٠] . فـإن آدم كان يعلم أن الدنيا منقضية فانية ، وأن ملكها يبلى .

قالوا : وأيضاً هذه القصة في سورة البقرة ظاهرة جداً في أن الجنـة التي أخرج منها فوق السماء، فإنه سبحانه قال : ﴿ وإذْ قُلنَا للملائِكَةِ اسجدُوا لآدَمَ فَسَجدُوا إلا إبليسَ أَبَى واستكْبَرَ وكانَ مِنَ الكافرينَ وقلنا يـا آدمُ اسكنْ أنْتَ وزوجُكَ الجنَّةَ وكُلا مِنها رَغَداً حيثُ شِئتُما ولا تَقْرَبا هـذهِ الشَّجرةَ فتكـونا مِنَ الظالمينَ . فأزلَّهما الشَّيطانُ عنها فأخرَجهُمَا ممَّا كانَا فيهِ وقُلنـا اهبطُوا بعضُكم

لبعضٍ عدوٌّ ولكُمْ في الأرضِ مُستَقَرٌ ومتاعٌ إلى حينٍ . فَتلقَّى آدَمُ من رَبِّهِ كلماتٍ فتابَ عليهِ إنَّهُ هُوَ التَّوابُ الرَّحيمُ ﴾ [البقرة : ٣٤ ـ ٣٧] . فهذا إهباط آدم وحواء وإبليس من الجنة ، ولهذا أتى فيه بضمير الجمع . وقد قيل : إن الخطاب لهما وللحية ، وهذا ضعيف جداً ، إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم ، ولا في السياق ما يدل عليها . وقيل : الخطاب لآدم وحواء، وأتى فيه بضمير الجمع كقوله : ﴿ وكُنَّا لِحُكمهم شاهدينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٨] . وهما داود وسليمان ، وقيل: لآدم وحواء وذريتهما.

وهذه الأقوال ضعيفة غير الأول ، لأنها بين قول لا دليل عليه ، وبين ما يدل اللفظ على خلافه ، فثبت أن إبليس داخل في هذا الخطاب وأنه من المهبطين ، فإذا تقرر هذا ، فقد كرَّر سبحانه الإهباط ثانياً بقوله : ﴿ قلنا اهبطُوا منها جميعاً فإما يأتينَّكم مني هُدىً فمن تبعَ هُداي فلا خَوفٌ عليهمْ ولا هم يحزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨] . والظاهر أن هذا الإهباط الثاني غير الأول ، وهو إهباط من السماء إلى الأرض ، والأول إهباط من الجنة. وحينئذ فتكون الجنة التي أهبط منها أولاً فوق السماء جنة الخلد، وقد ظن الزمخشري أن قوله : ﴿ اهبطُوا منها جميعاً ﴾ خطاب لآدم وحواء خاصة وعبر عنهما بالجمع لاستتباعهما ذرياتهما . قال : والدليلَ عليه قوله تعالى : ﴿ قالَ اهبطا مِنها جَمِيعاً بعضُكم لبعضٍ عدوٌّ ﴾ [طه : ١٢٣] . قال : ويدل على ذلك قوله : ﴿ فَمَنْ تبعَ هُدَايَ فلا خوفٌ عليهم ولا هُم يَحزَنُونَ ، والذين كفرُوا وكذبُوا بآياتِنا أولئكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيها خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨ ـ ٣٩] . وما هو إلا حكم يعمُّ الناس كلهم[1].

ومعنى [قوله] : ﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾، ما عليه الناس من التعادي والتباغي وتضليل بعضهم بعضاً . وهذا الذي اختاره أضعف الأقوال في الآية ، فإن العداوة التي ذكرها الله تعالى إنما هي بين آدم وإبليس وذريتهما ، كما قال الله تعالى : ﴿ إنَّ الشيطانَ لَكُمْ عدوٌّ فاتخذُوهُ عدوًّا ﴾ [فاطر : ٦] ، وهو سبحانه قد أكَّد أمر العداوة بين الشيطان والإنسان ، وأعاد وأبدى ذكرها في

---

(١) انظر الكشاف: ١/٢٧٤.

القرآن ، لشدة الحاجة إلى التحرز من هذا العدو ، وأما آدم وزوجته ، فإنه إنما أخبر في كتابه أنه خلقها ليسكن إليها ، وجعل بينهما مودة ورحمة ، فالمودة والرحمة بين الرجل وامرأته ، والعداوة بين الإنسان والشيطان .

وقد تقدم ذكر آدم وزوجه وإبليس وهم ثلاثة ، فلماذا يعود الضمير على بعض المذكور مع منافرته لطريق الكلام دون جميعه ، مع أن اللفظ والمعنى يقتضيه ، فلم يصنع الزمخشري شيئاً .

وأما قوله تعالى في سورة [طه] : ﴿ **قَالَ اهبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعضُكُمْ لِبعضٍ عَدوٌّ** ﴾ [طه : ١٢٣] . وهذا خطاب لآدمَ وحواء ، وقد جعل بعضهم عدواً لبعض : فالضمير في قوله : ﴿ **اهبطَا مِنها** ﴾ إما أن يرجع إلى آدم وزوجه ، أو إلى آدم وإبليس ، ولم يذكر الزوجة لأنها تبع له : وعلى هذا ، فالعداوة المذكورة للمخاطبين بالإهباط ، وهما آدم وإبليس ، فالأمر ظاهر ، وأما على الأول ، فتكون الآية قد اشتملت على أمرين :

أحدهما : أمره تعالى لآدم وزوجه بالهبوط .

والثاني : إخباره بالعداوة بين آدم وزوجه ، وبين إبليس ، ولهذا أتى بضمير الجمع في الثاني دون الأول ، ولا بدَّ أن يكون إبليس داخلاً في حكم هذه العداوة قطعاً ، كما قال تعالى : ﴿ **إنَّ هذا عدوٌّ لكَ ولزوجِكَ** ﴾ [طه : ١١٧] . وقال للذرية : ﴿ **إنَّ الشَّيطانَ لَكُمْ عَدوٌّ فاتخذُوهُ عَدوًّا** ﴾ [فاطر : ٦] .

وتأمل كيف اتفقت المواضع التي فيها ذكر العداوة على ضمير الجمع دون التثنية ؟ وأما الإهباط فتارة يذكره بلفظ الجمع ، وتارة بلفظ التثنية ، وتارة بلفظ الإفراد ، كقوله في سورة الأعراف : ﴿**قال اهبط منها**﴾ ، وكذلك في سورة ﴿ص﴾ ، وهذا لإبليس وحده ، وحيث ورد بصيغة الجمع ، فهو لآدم وزوجه وإبليس ، إذ مدار القصة عليهم ، وحيث ورد بلفظ التثنية ، فإما أن يكون لآدم وزوجه ، إذ هما اللذان باشرا الأكل من الشجرة ، وأقدما على المعصية ، وإما أن يكون لآدم وإبليس ، إذ هما أبوا الثقلين ، وأصلا الذرية ، فذكر حالهما ، ومآل أمرهما

ليكون عظة وعبرة لأولادهما ، وقد حكيت القولين في ذلك .

والذي يوضح أن الضمير في قوله : ﴿ اهبطَا منها جميعاً ﴾ لآدم وإبليس ، أن الله سبحانه لما ذكر المعصية أفرد بها آدم دون زوجه فقال : ﴿ وعَصَى آدمُ ربَّهُ فغَوى ، ثُمَّ اجتباهُ ربُّه فتابَ عليهِ وَهَدَى ، قال اهبطَا مِنها جميعاً ﴾ [طه : ١٢١ - ١٢٣] . وهذا يدل على أن المخاطب بالإهباط هو آدم ، ومن زين له المعصية ، ودخلت الزوجة تبعاً ، فإن المقصود إخبار الله تعالى للثقلين ، بما جرى على أبويهما من شؤم المعصية ، ومخالفة الآمر ، فذكر أبويهما أبلغ في حصول هذا المعنى ، ومن ذكر أبوي الإنس فقط . .

وقد أخبر سبحانه عن الزوجة بأنها أكلت مع آدم ، وأخبر أنه أهبطه وأخرجه من الجنة بتلك الأكلة ، فعلم أن حكم الزوجة كذلك ، وأنها صارت إلى ما صار إليه آدم ، وكان تجريد العناية إلى ذكر حال أبوي الثقلين أولى من تجريده إلى ذكر أبي الإنس وأمهم ، فتأمله . وبالجملة فقوله ﴿ اهبطوا بعضكم لبعض عدوٌّ ﴾ : ظاهر في الجمع ، فلا يسوغ حمله على الاثنين في قوله : ﴿ اهبطا ﴾ من غير موجب .

قالوا : وأيضاً فالجنة جاءت معرفة بلام التعريف في جميع المواضع ، كقوله : ﴿ أسْكُنْ أنتَ وزَوجُكَ الجنَّةَ ﴾ [البقرة : ٣٥] . ونظائره ، ولا جنة يعهدها المخاطبون ويعرفونها إلا جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب ، فمد صار هذا الاسم علماً عليها بالغلبة كالمدينة والنجم والبيت والكتاب ونظائرها ، فحيث ورد لفظها معرفاً انصرف إلى الجنة المعهودة المعلومة في قلوب المؤمنين ، وأما إن أريد به جنة غيرها فإنها تجيء منكرة ، أو مقيدة بالإضافة ، أو مقيدة من السياق بما يدل على أنها جنة في الأرض :

فالأول : كقوله : ﴿ جنّتينِ مِنْ أعْنَابٍ ﴾ [ألكهف: ٣٢].

والثاني : كقوله : ﴿ ولَوْلا إذْ دخَلْتَ جنَّتَكَ ﴾ [الكهف : ٣٩] .
والثالث : كقوله : ﴿ إنَّا بَلوْنَاهُمْ كما بلونا أصحابَ الجنَّةِ ﴾ [القلم : ١٧] .

قالوا : ومما يدل على أن جنة آدم هي جنة المأوى ، ما روى هوذة بن خليفة عن عوف ، عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال : إنَّ الله تعالى لما أخرج آدم من الجنة زوده من ثمار الجنة ، وعلّمه صنعة كلِّ شيء ، فثماركم هذه من ثمار الجنة ، غير أن هذه تتغيَّر وتلك لا تتغيَّر .

قالوا : وقد ضمن الله سبحانه وتعالى له إن تاب إليه ، وأناب أن يعيده إليها ، كما روى المنهال ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **فَتلقَّى آدمُ مِنْ ربِّهِ كَلِماتٍ فتابَ عليهِ** ﴾ [البقرة : ٣٧] . قال : يا رب ألم تخلقني بيدك ؟ قال : بلى ، قال : أيْ ربِّ ألم تنفخ فيَّ من روحك ؟ قال : بلى ، قال : أيْ رَبِّ ألم تسكني جنتكَ ؟ قال : بلى ، قال : أيْ رَبِّ ألم تسبق رحمتك غضبك ؟ قال : بلى ، قال أرأيتَ إن تبتُ وأصلحتُ أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال : بلى ، قال : فهو قوله تعالى : ﴿ **فتلقَّى آدمُ من رَبِّه كَلماتٍ فتابَ عليه** ﴾ وله طرق عن ابن عباس ، وفي بعضها : كأن آدم قال لربه إذ عصاه : ربِّ إن أنا تبتُ وأصلحتُ ، فقال له ربه : إني راجعك إلى الجنة . فهذا بعض ما احتج به القائلون بأنها جنة الخلد ، ونحن نسوق حُجج الآخرين .